



, Allaoua Amara

► **To cite this version:**

| , Allaoua Amara. . Revue des lettres et sciences humaines, 2004, 2 (2), pp.31-76. <10.37138/jarh.v2i4.2795>. [⟨hal-04081869⟩](https://hal.archives-ouvertes.fr/hal-04081869)

HAL Id: hal-04081869

<https://hal.science/hal-04081869>

Submitted on 26 Apr 2023

HAL is a multi-disciplinary open access archive for the deposit and dissemination of scientific research documents, whether they are published or not. The documents may come from teaching and research institutions in France or abroad, or from public or private research centers.

L'archive ouverte pluridisciplinaire HAL, est destinée au dépôt et à la diffusion de documents scientifiques de niveau recherche, publiés ou non, émanant des établissements d'enseignement et de recherche français ou étrangers, des laboratoires publics ou privés.



Distributed under a Creative Commons Attribution - NonCommercial - ShareAlike 4.0 International License

محلـة الأـدـاب وـالـعـلـومـ الـإـنـسـانـيـة

دورية علمية تصدرها كلية الآداب والعلوم الإنسانية
جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية - قسنطينة

العدد الرابع رمضان 1425 / أكتوبر 2004

ردمـكـ: 1112 - 4628

المجروحة الأخلاقية و إشكالية الخطاط حضارة المغرب الإسلامي الوسيط: قراءة في نقاش تاريجي

د. علاوة عمارة

كلية الآداب و العلوم الإنسانية

جامعة الأمير عبد القادر — قسنطينة

إن فكرة الخطاط الحضارة الإسلامية ليست بالجديدة، فقد تطرق إليها العلامة ابن خلدون في كتابه العمران و لاحظ ما أصاب العالم الإسلامي بعد تراجع العصبية العربية و وصول القيادات القبلية الممثلة في الأتراك و البربر إلى قيادة الأمة الإسلامية. غير أن الفكر الخلدوني ظل في أكثر الأحيان في طي النسيان و هو ما يجعله يقترب من سوسيولوجية الفشل¹ (*La sociologie de l'échec*) بالنسبة لعصره. فباستثناء بعض الأسماء القليلة كالمقرizi (ت 845 هـ/1441¹) و ابن الأزرق الأندلسي (ت 896/1491)² و المقرري التلمساني (ت 1040

¹ تلمح التأثير الخلدوني في كتابات المقريري وعلى الخصوص في رسالة إغاثة الأمة بكشف الغمة، تتع سعيد عبد الفتاح عاشر، القاهرة، دار الطالب، 1990.

² في كتابه بداعي السلك في طبائع الملك، تتع محمد بن عبد الكريم الجزائري، تونس، الدار العربية للكتاب، 1977.

1631) لا نكاد نجد تفاعل إيجابي مع الطرح الخلدوني المعاين لمختلف جوانب الحضارة الإسلامية و علىخصوص قضية الأضحى حلال و السقوط في إطار الدورة الخضراء.

مستغلًا ازدهاره الاقتصادي و تفوّقه الفكري، قام الغرب المسيحي بالتطرق إلى أسباب انقطاع العالم الإسلامي من خلال بعض الإشارات التي ترجع إلى السنوات الأولى لعصر التنوير الفرنسي (*Epoque des Lumières*). وأول إشارة لهذا الانقطاع تجدها في الرسالة التي بعث بها الطبيب فرانسوا بارنيي إلى كولبار (Colbert) الذي كان وزيراً للملك لويس الرابع عشر (Louis XIV). في هذه الرسالة تحدث هذا الطبيب الذي كان في خدمة الحكام الصوفيين عن أسباب سقوط حضارة الإسلام الآسيوي و أرجعها إلى احتكار الحكام للأراضي الفلاحية مما أدى بالغاية إلى السقوط في الفقر المدقع. هذه الإلتفاتة حظيت باهتمام مفكري الغرب الذين عكفوا على دراسة ظاهرة سقوط الحضارات القديمة و علىخصوص الإسلامية منها¹. ففي رواياته المعروفة بالرسائل الفارسية (*Lettres persanes*) لـ مونتسكيو (Montesquieu 1755) إلى الأزمة التي كان يعييها العالم الإسلامي و أرجعها إلى أسباب تاريخية مرتبطة بالعلاقة بين الحاكم و المحكوم². دائمًا في فرنسا "اللويس الرابع عشرية" نجد المفكر والمؤرخ فولتير (Voltaire) يكتب عن تاريخ العرب و الأنراك و يتطرق إلى انقطاع عالم

¹ انظر نفع الطيب من غصن الأنجلس الرطيب، تقع احسان عيسى، بيروت، دار صادر، 1988

² Cf. Henri-Irénée Marrou, *De la connaissance historique*, Paris, Editions du Seuil, 1954, p. 182-184.

³ Cf. Montesquieu, *Lettres persanes*, rééd. Paris, Maxi-Poche, 2002.

الإسلام في كتابه *Essai sur les Mœurs*. بعد ذلك يجد أن الاهتمام بما آلت إليه وضع العالم الإسلامي توسيع إلى مختلف بقاع العالم الغربي مثل ما يجده في كتابات كل من يوهان هردر (Johann G. Herder, m. 1803)، كريستيان فولني (Christian Volney, m. 1820) و غاستاف لو بون (Gustave Le Bon) (La civilisation des Arabes) . هذا الأخير كتب دراسة حول حضارة العرب (La civilisation des Arabes) و جعل من أحد فصوله محورا حول ما أسماه بأفول حضارة العرب¹.

في الفترة المعاصرة ازداد عدد الدراسات الغربية حول العالم الإسلامي من خلال الإنتاج التاريخي للمستشرقين خلال القرنين السابقين، و ما تبعه من دراسة شاملة ل التاريخ الإسلامي مختلف حقبه الزمنية. فكان الإجماع بين مختلف تياريات الاستشراق² الكلاسيكي و المعاصر أن الفترة الزمنية التي تمثل مرحلة التحولات الكبرى لحضارة الإسلام هي القرن الحادى عشر الميلادى، وهي التي ستؤدي إلى الخطاط عام لها في القرون المowالية. ففي كتابه النهضة الإسلامية (*El Renacimiento musulmán*) تطرق أنجلو غيريلي (Angelo Ghirelli) إلى هذا الانحطاط و حده بالقرن الحادى عشر قبل حدثه عن الحركات الإصلاحية الحديثة

¹ Gustave Le Bon, *La civilisation des Arabes*, rééd. Paris, Le Sycomore, 1980, p. 463-495.

² مصطلح الاستشراق (orientalisme) استعمل لأول مرة سنة 1799 في المجلة الموسوعية (Magazine encyclopédique) و اعترفت به الأكاديمية الفرنسية سنة 1835 . ميلاد هذا الاسم يدل على مدى تطور الاهتمام بالثقافات الشرقية موازاة مع ظهور الظاهرة الاستعمارية. انظر

Marcel Boisard, *L'humanisme de l'Islam*, Paris, Unesco, 1985 ; Saïd Edward. *L'orientalisme : l'Orient créé par l'Occident*, Paris, Seuil, 1980 ; Maxime Rodinson, *La fascination de l'Islam*, Paris, La Découverte, 1989 ; Rabah Saddek, « L'Islam dans l'orientalisme français » dans *al-Mun'ataf*, 14, (1988), p. 1-22.

التي ظهرت في العالم الإسلامي¹. هذه النظرة أخذت طابع العنصرية والإسقاطات الحديثة في كثير من الكتابات الغربية و هو ما نلاحظه في الكتاب الذي تركه لنا الوزير الأول لسلطنة مسقط و عمان، الانجليزي برتام طوماس (Bertram Thomas) حيث كتب:

"العرب كانوا شعب ليس لديه ذوق النظام و غير قادر على التيسير و حفظ الاستقرار. التوسعات العجيبة التي حدثت في القرنين السابع و الثامن الميلاديين و التي أدت إلى احتلال محيط جغرافي شاسع كمثله الروماني لوحقت في الحال بفترة اضمحلال سريعة تقريباً مثلها... العرب لم يعرفوا أميناً للسلم، فلا قسم عاشوا بالسيف فاهم ما توا بواسطته"².

فكرة اضمحلال الحضارة الإسلامية في القرن الحادي عشر الميلادي تبنتها أغلب دوائر الاستشراق الأنجلو-سكسوني و هو ما نلمحه في كتاب العرب في التاريخ (*The Arab in History*) لمؤلفه برنارد لويس (Bernard Lewis) و الذي صدر عام 1954 ، حيث كتب فصلاً عن ما أسماه بالعرب في طور الاضمحلال و أرجع هذه الوضعية إلى تراكم عدة عوامل و هي ضعف نظام الخلافة و تراجع الأنشطة التجارية و الفلاحية بسبب عدم قدرة النظام الإداري على التيسير

¹ Angelo Ghirelli, *El Renacimiento musulmán*, Barcelona, Montaner y Simón S. A., 1948, p. 24-27.

² Bertram Thomas, *Les Arabes*, trad. de l'anglais, Roland Huret, Paris, Payot, 1946.

الاقتصادي و النعمات الكبيرة لأنظمة الحكم. ضعف حضارة الإسلام يضيف لهذا المؤرخ ظهر جليا من خلال سلسلة من المحميات الخارجية و الداخلية مثلها على المخصوص كل من الإفرنج و عرب بي هلال¹.

علم الاستشراق الفرنسي و الغربي تبني هذا الطرح في المؤتمر الشهير الذي عقد في مدينة بوردو (Bordeaux) الفرنسية من 25 إلى 29 جوان 1956 والذي حل عنوانا مثيرا: "كلاسيكية و اضحلال ثقافي في تاريخ الإسلام". ومن أهم المداخلات التي سجلت في هذا الملتقى تجده على المخصوص إشكالية الملتقى التي قدمها روبار برونشفيك (Robert Brunschwig)، أحد أكبر المختصين الفرنسيين في التاريخ السياسي و الدين لل المغرب الإسلامي، و التي تركت حول مفاهيم الأض محلال و السقوط². المداخلة التي ألقاها المؤرخ الفرنسي كلود كهان (Claude Cahen) تعتبر من أهم ما قدم في المؤتمر نظرا لشهرة صاحبها من جهة و تخصصه في التاريخ الاقتصادي للإسلام من جهة ثانية. كلود كهان ركز على العوامل الاقتصادية و الاجتماعية فيما أسماه بالأصول الثقافية للإسلام، لأن حسب رأيه أن المناطق الأكثر غنى من الناحية الاقتصادية هي التي تركت بها المراكز الثقافية على غرار فارس و بلاد الرافدين و مصر. ابتداء من القرن الحادي عشر

¹ Bernard Lewis. *The Arab in History*, London, Hutchinson's University Library, 1954, p. 144-164.

² Robert Brunschwig, « Problème de la décadence » dans *Classicisme et déclin culturel dans l'histoire de l'islam, Actes du symposium international d'histoire et de civilisation musulmane*, Bordeaux (25-29 juin 1956), éd. Paris, Maisonneuve et Larose, 1977, p. 29-46.

الميلادي، عرف العالم الإسلامي تحولات عميقة تجع عنها ضعف ثم انهيار في القرن الرابع عشر الميلادي. كلود كهان يضيف إلى العوامل الاقتصادية عوامل أخرى مثل التفكك اللغوي والتراثات السياسية والصراعات الاجتماعية وهي التي تتج عنها أ Fowler حضارة الإسلام¹.

هذا الطرح الاستشرافي تبناه بعض المؤرخين العرب المتكونين بالجامعات الغربية وعلى الخصوص المسيحيين منهم كفلبيح حتى الذي أرجع "أ Fowler نجم العروبة في الشرق و الغرب" الذي حدث ابتداء من القرن الرابع المحرري إلى الخارج المرهق وإلى عدم تمازج العرب مع القوميات الأخرى التي دخلت في الإسلام². إشكالية أ Fowler حضارة الإسلام لم تكن حكرا على الدوائر الغربية، فهناك الكثير من المفكرين والمصلحين المسلمين من تطرق إليها ابتداء من القرن السابع عشر، من بين المحاولات البارزة تجد على الخصوص عهودات الشيخ محمد بن عبد الوهاب (ت 1792) الذي أرجع سبب تخلف المسلمين إلى تخليهم عن عقيدة السلف الصالح. بعده تقريرا بقرين جاء المصلح جمال الدين الأفغاني (ت 1897) الذي رأى في الاستعمار الغربي العامل الرئيسي لتخلف العالم الإسلامي و الذي لا سبيل للنهوض إلا بطرده. بعدها تعددت الكتابات والأراء حول سبل نهوض المسلمين لكن في غالب الأحيان بعيدا عن التساؤلات المطروحة في الدوائر الغربية.

¹ Claude Cahen, « Les facteurs économiques et sociaux dans l'ankylose culturelle de l'islam » dans *Classicisme et déclin culturel dans l'histoire de l'islam*, *Ibid*, p. 195-207.

² فلبيح، العرب – تاريخ موجز، بيروت، دار العلم للملائين، 1954، ص 190.

و من بين العديد من الكتابات نقل ما كتبه أبوالحسن الندوبي في كتابه "ماذا خسر العالم بالانحطاط المسلمين":

" قال أحد الأدياء: أمران لا يحدد لهما وقت بدقه، النوم في حياة الفرد، و الانحطاط في حياة الأمة، فلا يشعر بهما إلا إذا غلبا و استويا. انه لحق في قضية أكثر الأمم، و لكن بدأ التدلي و الانحطاط في حياة الأمة الإسلامية أوضحت منه في حياة الأمم الأخرى، ولو أن نضع إصبعنا على الحد الفاصل بين الكمال و الزوال لوضعنا على ذلك الخط التاريخي الذي يفصل بين الخلافة الراشدة و الملوكيّة العرية أو ملوكيّة المسلمين¹".

هذا النص حتى وإن استخرج من كتاب غير أكاديمي فإنه معبر عن نوعية الطرح العربي الإسلامي حول مسألة الانحطاط. فكتاب الندوبي المتشر بقوة بالخصوص في الأوساط الدينية من خلال أزيد من خمسة عشر طبعة عربية يصور لنا النظرة المسلمة لأسباب انحطاط العالم الإسلامي و التي ترجعها إلى أسباب سياسية متعلقة بانتقال الخلافة من شورية راشدة إلى ملك وراثي².

¹ أبوالحسن الندوبي، *ماذا خسر العالم بالانحطاط المسلمين*، القاهرة، دار القلم للنشر والتوزيع، 2000 ، ط 15 ، ص 129 .

² المرجع نفسه، ص 129-139 .

بطبيعة الحال، اجتناب الحديث عن تحقيب زمني (*La périodisation*) لظاهرة اجتماعية أو إعطاء تصور عام لبلورها لا يحظى بإجماع المؤرخين نظراً لاختلاف تصورهم لمفهوم التاريخ و الغاية من دراسته. فمثلاً في العالم العربي يجد على سبيل المثال طريف الحالدي يرفض فكرة الحكم على فترات ما من تاريخ الفكر بالازدهار و على أخرى بالانحطاط نظراً لارتباطها بالفترات السابقة واللاحقة و بمختلف التحولات السياسية و الاقتصادية و الاجتماعية¹. هذه النظرة رغم سلامتها قامت بسلب التاريخ من إحدى مقارباته و حاولت حصر المؤرخ في هدفه الذي سلطته أغلب الفلسفات التاريخية و هو الفهم دون الحكم. لكن هذا لم يمنع كما رأينا بعض المؤرخين من إصدار أحكام و تحديد القرن الحادى عشر الميلادي كفترة التحولات العميقة التي حدثت في العالم الإسلامي و التي أدت إلى انحطاط الحضارة الإسلامية باستعمال عدة مصطلحات للتعبير عن ذلك (*ankylose, déclin, décadence*). أما فيما يخص بلاد المغرب الوسيط، قامت المدرسة الاستشرافية الفرنسية منها على الخصوص بتحميل القبائل المطالية مسؤولية تغريب السينج العمري و الاجتماعي.

الاستشراف الفرنسي و تاريخ المغرب الوسيط

قراءة الكتابات الفرنسية حول تاريخ المغرب تسمح لنا برسم الخيوط الرئيسية للنظرية الاستعمارية لتفسير مختلف الحقب التاريخية لتاريخ بلاد المغرب:

¹ طريف الحالدي، بحث في مفهوم التاريخ و منهجه، بيروت، دار الطيبة، 1982، ص 80-81.

قامت الحضارة القرطاجية بتحصيف الأرضية الليبية البربرية، و قام الوجود الروماني بإدماج بلاد المغرب في تلك الحضارة الغربية قبل أن تفل و تظلم مع الفتح العربي و تربط بالدورة التاريخية الشرقية. الاحتلال العربي الذي تم على مراحلتين (الفتح العربي في القرن السابع و الهجرة الملالية في القرن الحادي عشر) قام بطرد البربر السكان الأصليين الذين لا يمكنهم استرجاع أراضيهم إلا مع الوجود الفرنسي و بالتالي العودة إلى تلك الحضارة الغربية الشهادة.

الكتابات التاريخية ركزت على الهجرة الملالية و دورها في تخريب بلاد المغرب، كما صورت لنا ذلك البربري المستقر في مواجهة الرحل العرب، وأول من قام بنشر هذه الأفكار العنصرية يجد على الخصوص أرنست مرسyi (Ernest Mercier) في كتابه الأول الصادر عام 1875 "تاريخ استقرار العرب بأفريقيا الساحلية من خلال وثائق المؤلفين العرب و على الخصوص تاريخ البربر ل ابن خلدون"¹؛ أما فيما يخص الكتاب الثاني فقد طبع سنة 1888 بعنوان "تاريخ

¹ Ernest Mercier, *Histoire de l'établissement des Arabes dans l'Afrique septentrionale selon les documents fournis par les auteurs arabes et notamment par l'Histoire des Berbères d'Ibn Khaldoun*, Constantine, L. Marle Librairie édition, 1875, 406 p.

إفريقيا الساحلية من الأرمنة البعيدة إلى الفتح الفرنسي¹. هذه النظرة المعادية للعرب تجلت في حل الدراسات الفرنسية حول تاريخ المغرب الوسيط التي كتبت في بداية القرن العشرين. ففي كتابه "قلعة بنى حماد، عاصمة بربرية لإفريقيا الشمالية في القرن الحادى عشر" تطرق الجنرال دوبالي (Le Général de Beylié) إلى المجزرة الهمالية و حملها مسؤولية أ Fowler حضارة القلعة الحمامدية².

بعد كتابات الجيل الأول من المستشرقين الاستعماريين حول ماضي المغرب ظهرت مجموعة أخرى وسعت من مجالات البحث التاريخي و مصادره من خلال استغلال المصادر التشرية و الوصفية و الفقهية و هو ما ساهم في محاولة إعطاء صورة عامة عن تاريخ المغرب الوسيط و توظيفه في قالب إيديولوجي موالي للاستعمار، و لهذا ظهرت مجموعة من الدراسات التي تحمل العرب مسؤولية التخلف الذي تعيشه "بلاد البربر" (La Berbérie) و الداعية إلى إعادة النظر في "الحقوق المسلوبة" للبربر بسبب "الهمجية المشرقة". فقد قام جورج مارسي (Georges Marçais) المتمي لـأكـر عائلة فرنسية مهتمة بكتابة تاريخ المغرب والأستاذ السابق بمدرسة قسنطينة، بتحضير رسالة دكتوراه حول "العرب في بلاد البربر من القرن الحادى عشر إلى الرابع عشر"³ و هي الدراسة التي حاولت رسم

¹ Ernest Mercier, *Histoire de l'Afrique septentrionale (Berbérie) depuis les temps les plus reculés jusqu'à la conquête française (1830)*, Paris, Ernest Leroux, 1888, vol. II, 477 p.

² Le général de Beylié, *La Kalaa des Beni-Hammad. une capitale berbère de l'Afrique du Nord au XI^e siècle*, Paris, Ernest Leroux, 1909, p. 9.

³ هذه الأطروحة نشرت في سنة 1913. أنظر:

Georges Marçais, *Les Arabes en Berbérie du XI^e au XII^e siècle*, Constantine, Paris, Ernest Leroux, 1913, 2 vol. 769 p.

حربيطة للقبائل الهمالية التي استقرت ببلاد المغرب ابتداء من منتصف القرن الحادى عشر. بالرغم من الطابع الوصفى لهذه الدراسة فان حورج مارسي ما لبث أن أصدر أحكاماً قاسية عن القبائل الهمالية و أهتم إياها بتحريض حضارة المغرب، وهي الأحكام التي أعلنها صراحة في العديد من كتاباته و على المخصوص "بلاد البربر الإسلامي و الشرق في العصر الوسيط". في هذا الكتاب الأخير رتب مارسي ما أسماه نتائج الحملة الهمالية وهي إشاعة الفوضى بإفريقية، و تعریب المنطقة، وإدخال البداوة إليها، و اغتصاب أراضي بربر زناتة و هذا ما أدى ببلاد المغرب من الدخول في طور جديد تميز بالانحطاط.¹

مع إميل فلليكس غوتي (Emile Félix Gautier) ظهرت نوع من الكتابات العنصرية من خلال أهانة العرب بتحطيم حضارة المغرب الموروثة عن السرومان و البيزنطيين و تشبيه الحركة الهمالية بمحمدية الشعوب المتربصة المحظمة لحضارة روما. ففي كتابه "أسلامة إفريقيا الشمالية، القرون المظلمة للمغرب" كرر عدد من أقوال ابن خلدون حول "هيمنة العرب" ووظفها في قالب إيديولوجي استعماري و من هذه المقولات المكررة²:

إن العرب إذا تغلبوا على أوطنان أسرع إليها الخراب
والسبب في ذلك أهتم أمّة وحشية باستحكام عوائد
التوحش و أسبابه فيهم فصار لهم خلقاً و جيلاً و كان

¹ Georges Marçais, *La Berbérie musulmane et l'Orient au Moyen Age*, 1927, rééd. Casablanca, Editions Afrique Orient, 1991, p. 193-228.

² Emile Félix Gautier, *L'islamisation de l'Afrique du Nord : les siècles obscurs du Maghreb*, Paris, Payot, 1927, p. 389.

عندهم ملذوذًا لما فيه من الخروج عن رقة الحكم و عدم الانقياد للسياسة و هذه الطبيعة منافية للعمران و مناقضة له فغاية الأحوال العادلة كلها عندهم الرحمة و التغلب و ذلك مناقض للسكنون الذي به العمران و مناف له فالحجر مثلا إنما حاجتهم إليه لتنصبه أثافي للقدر فينقلونه من المباني و يخربونها عليه و يعدونه لذلك... و إفريقية و المغرب لما حاز إليها بنو هلال و بنو سليم منذ أول المائة الخامسة و ترسوا هما لثلاثمائة و خمسين من السنين قد لحق بها وعادت بسائطه خرابا كلها بعد أن كان ما بين السودان و البحر الرومي كله عمراناً تشهد بذلك آثار العمران فيه من المعالم و تماثيل البناء و شواهد القرى و المداشر¹.

ربط الحجرة الملاالية بأكبر الحركات المخططة لحضارات العالم تبنته الكثير من الدراسات كما نلمحه في كتاب "الشعوب المتبررة من الغزوات الكبرى إلى الفتوحات التركية في القرن الحادى عشر" لمؤلفه لويس هلفن (Louis Halphen) الذي أرجع تحرير بلاد المغرب المزدهرة حسب رأيه إلى العرب الملالين². اهتم

¹ ابن خلدون، المقدمة، بيروت، مؤسسة جمال للنشر، (ب ت)، ص 125-126.

² Louis Halphen, *Les Barbères, des grandes invasions aux conquêtes turques du XI^e siècle*, rééd. Paris, Librairie Félik Alcan, 1930, p. 374.
« Geste imprudent, que le calife du Caire, faute de pouvoir agir, venge rageusement en lâchant sur les provinces de l'ouest, en 1052, les bandes sauvages et assoiffées de butin d'une tribu arabe du Nadjd, les Hilal, cantonnés depuis la fin du dixième siècle en Haute Egypte, du côté d'Assouan, et qui vont en quelques années réduire à néant les richesses de l'Afrique du Nord ».

العرب الهمالية بتحريض البنية الاقتصادية والاجتماعية لبلاد المغرب أخذ حيزا هاما في الدراسات التاريخية الاستعمارية كما نلمحه على الخصوص في كتابات المؤرخ الفرنسي شارل أندرى جولييان (Charles-André Julien) في كتابه العام الموسوم بـ "تاريخ إفريقيا الشمالية: تونس، الجزائر، المغرب منذ الفتح العربي حتى سنة 1830". بالرغم من الرغبة المعادية للاستعمار¹ التي أبدتها هذا الكاتب فإنه ما لبث أن سقط في فلك الإسطوغرافيا الفرنسية من خلال إهانة العرب الهمالية بتحريض مدينة القิروان وجعل هجرتهم كأهم حدث مأساوي حرى في العصور الوسطى². وهذا الموقف يتجدد في كتاب "الدين الإسلامي في بلاد البربر" لمؤلفه ألفريد بيل (Alfred Bel) عندما يجعل من العرب الهمالية العامل الرئيسي لما آل إليه وضع المغرب وخصوصا فيما يخص تعريب القبائل البربرية.³

في كتابه الموسوم بـ "المغرب الأوسط في عهد الزيريين" تطرق الأركيولوجي الفرنسي ليسيان غولنوا (Lucien Golvin) إلى ما اعتبره نهاية حضارة المغرب الوسيط وحمل القبائل الهمالية مسؤولية الـ اخْتِطاط الذي حدث من خلال

¹ هذه الرغبة المعادية للاستعمار تلمسها خصوصا في المقالات التي نشرها المؤلف في مختلف الجرائد التي اشتهرت بعاقف بيسارية معارضة للسياسة الاستعمارية مثل *L'Echo d'Oran, La Lutte sociale et le Une pensée anti-coloniale, Progrès civique positions 1914-1979*, Paris, Sindbad, 1979.

² Charles-André Julien, *Histoire de l'Afrique du Nord : Tunisie -Algérie- Maroc depuis la conquête arabe à 1830*, Paris, Payot, 1931, rééd. revue par R. Le Tourneau, 1975, p. 373.

³ Alfred Bel, *La religion musulmane en Berbérie esquisse d'histoire et de sociologie religieuse*, Paris, Librairie orientaliste Paul Geuthner, 1938, vol. I, p. 209.

قطع الطرق و تخريب المزارع و إحداث أثر سلي على جميع الأنشطة^١. كذلك تطرق روحي لوتوরنو (Roger Le Tourneau) إلى العرب الظلالية في محاضرة ألقاها بجامعة برنسون (Princeton University) حيث أقحمهم بطرد السكان البربر من أراضيهم و تحويل النشاط الاقتصادي من زراعي إلى رعي^٢. في نفس الفترة تقريباً ثارت الإشارة إلى تخريب المغرب من طرف الظلاليين و هذا في الكتاب العام الذي ألفه غاستون وايت (Gaston Wiet) الموسوم بـ "عظمة الإسلام من محمد إلى فرنسوا"، حيث كتب أن العرب خربوا كل المحاصيل الزراعية و تحطيم البنية الاقتصادية و السياسية لبلاد المغرب، بل إنه تحدراً على شتم العرق العربي و اعتبره مصدر قطاع الطرق و النهائي^٣.

النقاش الغربي حول أثر الهجرة الظلالية في تاريخ بلاد المغرب ظل حبيس المدرسة التاريخية الفرنسية في الفترة السابقة للاستقلال الوطني اللهم إلا تلك الإشارات العابرة في بعض المؤلفات الأنجلو سكسونية و الألمانية مثل ما كتبه نوفييل بربور (Nevill Barbour) حول مسؤولية قبائل بني سليم و بني هلال في تحطيم القصروان و تخريب بلاد المغرب إضافة إلى تعريب المنطقة^٤، و ما كتبه المستشرق الألماني كارل بروكلمان (Carl Brockelman) في كتابه "تاريخ الشعوب الإسلامية

^١ Lucien Golvin, *Le Maghreb central à l'époque des Zirides, recherches d'archéologie et d'histoire*, Paris, Arts et métiers graphiques, 1957, p. 307-314.

^٢ Roger Le Tourneau, « North Africa in Historical Perspective » dans *Current Problems in North Africa*, Princeton University Conference, 1959, p. 4.

^٣ Gaston Wiet, *Grandeur de l'Islam, de Mahomet à François*, Paris, La Table Ronde, 1961, p. 198-203.

^٤ Nevill Barbour, *A Survey of North West Africa (The Maghreb)*, Oxford, Oxford University Press, 1959, p. 18.

" حيث تبيّن طرح الاستشراق الفرنسي حول هذه المسألة¹ ، وأحياناً تلك الأسطر التي كتبها برتولد سپيلر (Bertold Spuler) في كتابه "عصر الخلفاء" و الذي تناول فيها أي حكم قاس عن آثار المحرقة الذهنية² .

إذا كانت الدراسات الاستشرافية الألمانية والأنجلو-سكسونية قد تميزت بنوع من "الاعتدال" في حكمها على القبائل الذهنية فإن المدرسة الفرنسية عرفت بعادتها للعرب ووصف أعمالهم بالكارثة الكبرى التي ضربت بلاد المغرب وقد مثل هذا الاتجاه المؤرخ الهادي روجي ادريس.

الهادي روجي ادريس و "كارثة" المحرقة الذهنية

مع نهاية الربع الأول من القرن العشرين ظهرت سلسلة من الدراسات الاستعمارية حاولت مسح اسم "المغرب" و تعويضه بـ "بلاد البربر" (La Berbérie) وقد دشن هذا الاتجاه جورج مارسي و تلته عدّة دراسات تبنت نفس الاسم كما رأينا مع الفرد بال مثلا، لكن الشيء الملفت للانتباه هو ذلك التركيز الذي حظيت به تونس والشرق الجزائري تحت اسم بلاد البربر الشرقي (La Berbérie orientale) ، و لهذا أبْغَرت عدة أطروحتات جامعية حول هذه المنطقة لدراسة التطور التاريخي للبنية الاجتماعية للمجتمع المغربي. أول هذه الدراسات الجامعية كانت من إخراج فوندرهيدان (Vonderheyden) بعنوان "بلاد البربر

¹ كارل بروكلمان، تاريخ الشعوب الإسلامية، ترجمة بيه أمين فارس و منير البعليكي، بيروت، دار العلم للملائين، ط 10، 1984، ص 319-320.

² Bertold Spuler, *The Muslim World, I – The Age of the Caliphs*, traduit de l'allemand, F. R. C. Bagley, Leiden, E. J. Brill, 1960, p. 108.

الشرقي في عهد دولة بن الأغلب" و التي نشرت عام 1924. هذا المؤلف نظر إلى ظروف ارتباط افريقيا الأغلبية بالشرق الإسلامي من خلال دراسة النظم والمؤسسات، يعنى آخر مقاربة وصفية للمؤسسات دون الخوض في المسائل المطروحة كقضية الازدهار أو الانحطاط المغربي مقارنة مع الفترة الرومانية¹. في سنة 1940 أصدر المؤرخ و عالم الإسلامية الفرنسي روبير برونشفيك (Robert Brunschwig) دراسة كلاسيكية هامة و التي تعد من أهم المرجعيات الأساسية لدراسة العصر الحفصي و هذا بعنوان "بلاد البربر الشرقي في عهد الحفصيين". برونشفيك استغل العديد من المصادر التاريخية و الجغرافية و الفقهية، بل وظف لأول مرة النوازل في كتابة التاريخ و من هنا جاءت أهمية دراسته و التي ترجمت مؤخراً إلى العربية. المؤلف استعمل لأول مرة مصطلح "الكارثة الملالية" (La catastrophe hilalienne) للتعبير عن رأيه فيما يخص دور المحرقة الملالية في تاريخ المغرب². برونشفيك أراد معرفة حقيقة ما جرى في السنوات الأولى لوصول الملاليين لأنهم درسهم في فترة متأخرة نسبياً عن الحادثة و لهذا كلف أحد تلامذته بالتحاز هذا البحث في إطار رسالة دكتوراه دولة. فاختار لهذا الغرض المادى روحي ادريس (Hady Roger Idris) التونسي من أبيه (فقدة في صغره) و الفرنسي من أمه و المتقن جداً للغة العربية. لدراسة هذا الموضوع بطريقة شاملة قام هذا

¹ M. Vonderheyden, *La Berbérie orientale sous la dynastie des Benou I-Arlab (800-909)*, Paris, Librairie orientaliste Paul Geuthner, 1924, 344 p.

² Robert Brunschwig, *La Berbérie orientale sous les Hafsidés, des origines à la fin du XV^e siècle*, 1940, rééd. Paris, Librairie d'Amérique et d'Orient Adrien-Maisonneuve, 1982, vol. I, p. 357.

الأخير بتحضير رسالة دكتوراه دولة و ناقشها بجامعة السوربون عام 1958 بعنوان "بلاد البربر الشرقي في عهد الزيريين" و التي نشرت مرتين (1959، 1962) و ترجمت مؤخرا إلى العربية. ادريس ينبع في إعداد أهم مرجعية تاريخية حول افريقيبة في العهد الزيري من حلال تبع نفس المقاربة الكلاسيكية لأستاذه برونشفيك. و يعد بحق من أهم المؤرخين الأوائل الذين وظفوا المصادر الفقهية في كتابة التاريخ و على الخصوص نوازل البرزلي و معيار الونشريسي. ادريس اشتهر بتأكيده و تعميمه لفكرة "الكارثة الهمالية" من خلال الجزم بأن وصول الهماليين لل المغرب يعد ضربة قاضية لحضارة المغرب لأن هذه القبائل البدوية خربت العمران و أتلفت المحاصيل الزراعية و اغتصبت الأراضي و طردت السكان البربر الأصليين. باختصار فإنه يرى بأن الهجرة الهمالية مثلت نهاية العصر الذهبي لبلاد المغرب¹. هذه الاتهامات الخطيرة للهماليين أيقظت الأوساط العلمية حول ضرورة البحث عن حقيقة ما حدث.

التيار الماركسي الفرنسي في مواجهة أصحاب النظرية الكارثية

بعد جون بونسي (Jean Poncet) من أهم المؤلفين الذين اعترضوا على فكرة وصف الهجرة الهمالية بالكارثة التي حلت ببلاد المغرب. بونسي لم يكن مسؤولاً بل دخل التاريخ من زاوية جغرافية من حلال ينبع عن أنماط الإنتاج في افريقيبة. فقد كتب مقالتين عامي 1954 و 1961 حول أنماط العيش في تونس

¹ Hady Roger Idris, *La Berbérie orientale sous les Zirides X-XII^e siècles*, Paris, Adrien-Maisonneuve, 1962, vol. 2, p. 625.

اعتمادا على فكرة مستخرجة من "كتاب العرمان" لابن خلدون¹ و تطرق فيما إلى إشكالية الازدهار والانحطاط في شمال إفريقيا و هو رد صريح على النظرة الاستعمارية لتفصير تاريخ المغرب الوسيط². بعد طبع و رواج الدراسة الهامة للهادى روحي ادريس حول بلاد افريقيا في العهد الزيري و الذي تحت فيه "محاكمة" الهماليين، قام بونسي بالرد على المؤرخ الفرنسي في مقالين تحت عنوان "أسطورة الكارثة الهمالية" (1967)³ و "مجددا حول الهماليين: توضيح الهمادي روحي ادريس" (1968)⁴. لقد أعاد بونسي على ادريس تحويل العرب الهماليين مسؤولية تخريب المغرب و أهمه بالاعتماد على كتابات متاخرة عن زمن الحادثة وعلى مؤرخين كتبوا لصالح الدول البرجوازية سواء في بجاية أو المهدية. الهمادي روحي ادريس دافع عن آرائه في مقالين صدران عام 1968 تحت عنوان "حقيقة الكارثة الهمالية"⁵ و "الغزو الهمالية و نتائجها"⁶، مؤكدا آرائه المعادية للعرب

¹ Jean Poncet, « L'évolution des genres de vie en Tunisie : autour d'une phrase d'Ibn Khaldun » dans *Cahiers de Tunisie*, VI (1954), p. 315-323.

² Jean Poncet, « Aux sources de l'histoire nord-africaine : prospérité et décadence ifriqiennes » dans les *Cahiers de Tunisie*, t. IX, n° 33-35, (1961) p. 221-243.

³ Jean Poncet, « Le mythe de la (catastrophe) hilaliene » dans *Annales, Economie, Société et Civilisations*, 22 (1967), p. 1099-1120.

⁴ Jean Poncet, « Encore à propos des Hilaliens, la mise au point de R. Idris » dans *Annales Economie, Société et Civilisations*, 23 (1968), p. 660-662.

⁵ Hady Roger Idris, « De la réalité de la catastrophe hilaliene » dans *Annales, Economie, Société et Civilisations*, 23 (1968), p. 390-396.

⁶ Hady Roger Idris, « L'invasion hilaliene et ses conséquences » dans *Cahiers de civilisation médiévale*, 3, (1968) p. 353-371.

الهلالية و اهم خصمه بونسي بعدم معرفته للمصادر التي تتحدث عن " هجية " القبائل الهمالية.

النقاش الحاد بين ادريس و بونسي توسع مع نهاية السبعينات و بداية السبعينات بنشر عدة دراسات حول آثار الهجرة الهمالية و قامت النخبة المغاربية المفرنسة بلعب دور مهم في هذا النقاش.

النخبة المغاربية المفرنسة في مواجهة الطرح الاستعماري

تبينت الردود بشأن مسؤولية العرب الهمالية في سقوط أو اضمحلال حضارة المغرب الإسلامي. وبعد النقاش الحاد بين المؤرخين الفرنسيين جاء دور النخبة المغاربية المثقفة، حيث أصدر المؤرخ المغربي عبد الله العروي كتابا باللغة الفرنسية تحت عنوان " تاريخ المغرب محاولة في التركيب " و فيه قام بمناقشة عدة آراء حول ما كتب بخصوص تاريخ المغرب و دعى إلى تحرير التاريخ من الترعة الاستعمارية (Décoloniser l'histoire) و هنا أتوقف قليلا حول ما كتب بخصوص مسألة الهجرة الهمالية.

عبد الله العروي تحدث عن ما أسماه بالتفسيـر الكلاسيكي للهجرة الهمالية وتمثل في التحدث عن مختلف المعارك التي أجرها هذه القبائل ضد المعز بن باديس (حسيدران) أو الناصر بن عناس الحمادي (سيبة)، ثم انتقل للحديث عن تفسير آخر كتبه المعاصرين للهجرة الهمالية مثل ابن شرف القبرواني و نقله عنهم ابن عذاري المراكشي و قام ابن خلدون بتنظيمه. هذه النظرة أخذها عنهم جورج مارسي و غوتبيه و المادي روجي ادريس. العروي يرى بأن هذه النظرة يجعل من الحملة الهمالية نقطة قطعية في تاريخ المغرب و هذا اعتمادا على بعض آثار الهجرة

من خلال بعض النصوص، فعلى المستوى البشري، فإن قبائل زناتة التي سكت بالمناطق الرعوية للمغرب الأوسط طردت نحو الغرب، و على المستوى الاقتصادي تحول الاقتصاد من زراعي إلى رعوي، و نتيجة أخرى و هو تخريب المدن و تراجع العمران في الكثير من المدن كالقروان و قلعة بنى حماد و سجلamasة. هذا الوضع الذي أدى إلى تفكك الدولة و سيادة الفوضى تجّع عنه احتلال النورمان (Les Normands) لبعض المدن الساحلية لبلاد إفريقيا. اعتبر العروي هذه النظرة غير محاباة لأنها كتبت بأقلام كتاب البرجوازية المتغلبة في وسط رجال البلاط المعادي للقبائل الهمالية. الفتاوى التي تهتم القبائل الهمالية و نظام الحكم أصدرت كذلك من طرف برجوازية تجارية. في مقابل هذه النظرة التقليدية اقترح نظرة أخرى تدافع عن الهماليين من خلال التركيز على الظروف التي عرفتها إفريقيا قبل مجيء هذه القبائل إليها و على المخصوص المشاكل الدينية المرتبطة على التشيع. مقاربة متأثرة بالأفكار الماركسية تمكّن العروي من إعطاء نظرة نقدية و سطحية في نفس الوقت عن المصادر التي كتبت حول الحجرة الهمالية و وضعها في نسق عام تميز بالانقطاع العالم الإسلامي في شرقه و مغربه (سقوط الخلافتين العباسية و الفاطمية، المحميات الصليبية، الانهزام و التراجع في الأندلس...) و بتطور اقتصادي للغرب الأوروبي الذي حاول السيطرة على حوض البحر المتوسط. لقد اتفقد كذلك الفكرة التي نشرها غوتبيه حول العلاقة بين البربر المستقر و العربي الهمالي الراحل و اعتبرها من المغالطات الاستعمارية¹. العروي يرى بأن المغرب عرف الحروب

¹ Abdallah Laroui, *L'histoire du Maghreb. Un essai de synthèse*, 1970, rééd. Paris, Maspero, 1982, p. 140-146.

التي وقعت بين القبائل المؤيدة للفاطميين و الجموعات الموالية لل بلاط قرطبة الأموي و التي أدت إلى انتهاط اقتصادي و إلى أزمة ديمografique لأن سكان افريقيا و المغرب الأوسط بحقوا إلى المغرب الأقصى و هناك حاولوا إقامة إمارات منافسة للأحفاد ادريس بن عبد الله¹.

النخبة العربية المغربية واصلت إبداء رأيها كما هو حال الكاتب سمير أمين الذي سقط في فلك التفسير الاستعماري لظاهرة الهجرة المهاجرة فهو يتهم القبائل المهاجرة بتدمير الأرياف البربرية التي كانت مزدهرة، و بتخريب أنظمة السقي، و بطرد السكان الأصليين من قراهم إلى الجبال². في نفس الفترة تطرق عبد الحميد دويب في الجزء الذي كتبه ضمن " تاريخ تونس في العصر الوسيط " إلى المسألة المهاجرة و اكتفى بالنظر إلى بعض مخلفات الهجرة المهاجرة كنهب القرى و انشار الفوضى بأفريقيا³. فهو إذن يتناول الموضوع بنظرية تقليدية بعيداً عن الطرح الاستعماري.

النخبة المغاربية واصلت خوضها للنقاش حول آثار الهجرة المهاجرة، ففي سنة 1974 تطرق المؤرخ التونسي محمد الطالبي إلى المهاجرين في مقال له تحت عنوان " الفقه و الاقتصاد في افريقيا في القرن التاسع الميلادي " و التي اتفق فيه أصحاب التفسير الكارثي للتاريخ و اعتبر أن القبائل المهاجرة احتملت عملية تحطيم الاقتصاد كان مريراً قبل وصولهم بمدة إلى المنطقة. ففي نظر الطالبي، الحملة المهاجرة

¹ Ibid, p. 129-130.

² Samir Amin, *Le Maghreb moderne*, Paris, Les Editions de Minuit, 1970, p. 15-16.

³ Abdelmajid Douib, « L'Ifriqiya à l'époque ziride » dans *Histoire de la Tunisie, Le Moyen Age*, Tunis, Société tunisienne de diffusion, (s.d.), p. 307-314.

ليست المسؤولة الوحيدة عن هذا الانحطاط و إنما هناك عوامل أخرى ساهمت في ذلك مثل نقص اليد العاملة في المجال الفلاحي بسبب نقص العبيد بعد أن سيطرت القوى المسيحية على الملاحة المتوسطية. في الأخير يرى هذا المؤرخ التونسي بأن المحرقة الملالية حولت الاقتصاد المغربي من زراعي و حضري إلى رعوي¹ ، و في هذه النقطة يشترك مع النظرة الاستعمارية الفرنسية. محمد الطالبي راجع أطروحاته في مداخلة له و هذا بالملتقى الدولي الثلاثين للعلوم الإنسانية بآسيا و إفريقيا الشمالية و الذي انعقد بمدينة مكسيكو من 3 إلى 8 أوت 1976، حيث حدد القرنين العاشر و الحادي عشر الميلاديين كزمن التحولات الكبرى في بلاد المغرب والذي نتج عنه تراجع ملحوظ على المستوى العمالي و البشري بسبب ثورات البربر و على الخصوص حركة أبي يزيد النكاري².

المؤرخ الجزائري عطاء الله دهينة الذي بحث في تاريخ المغرب الإسلامي في عهد دوispalat ما بعد الموحدين أعطى رأيه في الموضوع و استعمل لأول مرة مصطلح "تأخر" (Le recul) للتعبير عن ما آل إليه الاقتصاد المغربي في القرن الرابع عشر الميلادي، و قال بأنه من الصعب تحمل عامل معين مسؤولية ما آل إليه الوضع الفلاحي نتيجة تراكم عدة أسباب منها و سياسية مرتبطة أساسا

¹ Mohamed Talbi, « Droit et économie en Ifriqiya au III/IX^e siècle » rééd. dans *Etudes d'histoire ifriquienne et de civilisation musulmane*, Tunis, Publications de l'Université de Tunis, 1982, p. 185-208.

² Mohamed Talbi, « Effondrement démographique au Maghreb du XI au XV^e siècle » dans *Cahiers de Tunisie*, XXV, (1977) p. 51-60.

بسيادة الفوضى و الأخلال الدول ببلاد المغرب¹. عطاء الله دهينة تحرر من الطرح الاستعماري المحمل للعرب الهمالية مسؤولية إسقاط حضارة المغرب.

لقد توسيع دائرة النقاش حول دور القبائل الهمالية لتطرق إلى الجذور الأولى لمسير قوم لمحاولة فهم ما حدث انطلاقاً من بدايته، و لهذا بعد التونسي راضي دغفوس يقوم بالبحث عن أصول القبائل الهمالية و السليمية و هذا من خلال مقالين. الأول نشر عام 1975 تحت عنوان "أصل بنى هلال و بنى سليم" و فيه تعرض إلى بعض ما قيل بشأن هذه القبائل قبل أن يتطرق إلى حياتهم في بلاد العرب و دخولهم في الإسلام و أعمالهم حتى رحيل الفاطميين إلى مصر. صاحب المقال ركز على عمليات نهب المسافرين و الحجاج من طرف هذه القبائل². أما المقال الثاني فقد صدر سنة 1977 تحت عنوان "مظاهر الحالة الاقتصادية في مصر عند منتصف القرن الخامس الهجري/ منتصف القرن الحادي عشر الميلادي: مساهمة في دراسة ظروف هجرة القبائل العربية (بني هلال و بنى سليم) إلى إفريقيا" حيث أوضح بأن فترة مغادرة القبائل الهمالية لصعيد مصر تزامنت مع الأزمة الاقتصادية التي عرفتها الخلافة الفاطمية سنة 444هـ/1052م. إذن العامل السياسي وحده غير كاف لتفسير الهجرة الهمالية بل يضاف إلى ذلك الظروف الاقتصادية المزمرة التي عرفتها مصر الفاطمية و التي أسف عنها رحيل هذه القبائل بحثاً عن الرزق³.

¹ Atallah Dhina, *Les Etats de l'Occident musulman aux XIII^e, XIV^e et XV^e siècles, institutions gouvernementales et administratives*, Alger, ENAL, 1984, p. 344.

² Radhi Daghfous, « De l'origine des Banū Hilâl et des Banū Sulaym » dans *Cahiers de Tunisie*, XXVI, (1975) p. 41-68.

³ Radhi Daghfous, « Aspects de la situation économique de l'Egypte au milieu du V/milieu du XI^e siècle : contribution à l'étude des conditions de l'immigration des

الكتابات العربية بين الوصف والدفاع

الكتابات باللغة العربية حول حضارة المغرب الوسيط تعددت و لكن القليل منها من اهتم بتحليل الظواهر و بيان مراحل تطورها، معنى آخر اهتم بال المجال الوصفي على حساب محاولة الفهم بأسلوب علمي يتماشى مع التطورات التي عرفها علم التاريخ الحديث. سوف لا أشير إلى جميعها بطبيعة الحال و إنما سأقتصر على بعض المنعطفات الكبرى للكتابات التي تطرقت إلى مسألة الخطاط المغرب الوسيط.

ففي كتابه الموسوم بـ "العلاقات بين زيري و الفاطميين وأثرها في تاريخ ليبيا" تطرق مراجع عقبة الغنائي إلى الفحرة الظلالية و حملها مسؤولية الخطاط بلاد المغرب:

" وقد ترتب على دخول جحافل العرب هذه إلى إفريقيا نتائج خطيرة سياسية و اجتماعية و اقتصادية و بشرية و ثقافية... هذه القبائل حرفتها السلب و النهب، و سلاحها السيف و الرمح... أصبحت البلاد بدءاً فاتناً و مرض عاصف، دمار للعمaran كبيرة و أحذائية و سرت و اطرابلس و شتّت أهلها و سلبت أملاكهم¹".

¹tribus arabes (Hilāl et Sulaym) en Ifriqiya » dans *Cahiers de Tunisie*, XXV, (1977) p. 23-50.

مراجع عقبة الغنائي، العلاقات بين زيري و الفاطميين وأثرها في تاريخ ليبيا، طرابلس، مطبوع وزارة الإعلام، 1968، ص 82.

عندما نقرأ هذه الأسطر يتادر إلى الذهن بأن صاحبها هو غوتييه أو حسروج مارسي، لكن لا الأول ولا الأخير له صلة بهذه الأسطر. إن كاتب هذه الأحكام القاسية ضد عرب بني هلال هو كاتب عربي تأثر بالكتابات الاستعمارية الكلاسيكية التي نسجت معالم تفسير كارثي للهجرة الملالية. مراجع عقيلة الغنائي ليس الوحيد الذي تأثر بمدرسة الاستشراق الفرنسي بل يبعد آخرون وخير مثال على ذلك أحمد بن عامر في كتابه الموجه للجمهور العربي تحت عنوان "الدولة الصنهاجية صفحة من العصر الذهبي للحضارة التونسية"، و هو الكتاب الذي جعل فيه صاحبه من المجراة الأخلاقية الحدث المغير عن انتهاء حضارة زاهرة¹. نفس النظرة تجدتها في كتاب "تاريخ المغرب العربي في سعة قرون بين الإزدهار والذبول" الصادر سنة 1974 لـ محمد الهادي العامري أين تحدث هذا الكاتب عن العرب الذين عاثوا في الأرض فساداً و عن بلوء بقايا البربر إلى الجبال كعادتهم².

مع محمود إسماعيل في كتابه "الخوارج في المغرب الإسلامي" (1970) تمت إثارة عامل آخر من عوامل اضمحلال حضارة المغرب بماركسية مدافعة عن القبائل البربرية الفقيرة ضد "البرجوازية" العربية حاول المؤلف أن يعطي لنا مجموعة من العوامل المساعدة في تخريب الاقتصاد المغربي إلى جانب ثورات البربر الخوارج، لكن المؤلف ما لبث أن سقط في ذلك الطرح الاستعماري و المتمثل في حتمية أهول

¹ أحمد بن عامر، الدولة الصنهاجية صفحة من العصر الذهبي للحضارة التونسية، تونس، الدار التونسية للنشر، 1972، ص 35-38.

² محمد الهادي العامري، تاريخ المغرب العربي في سعة قرون بين الإزدهار والذبول، تونس، الشركة التونسية للتوزيع، 1974، ص 138-139.

حضارة المغرب مقارنة مع الفترة السابقة للإسلام¹، يعني آخر قامت الدراسات الاستشرافية بإعطاء نظرية أسطورية لما سمى بمخزن روما من الحبوب (Le grenier de Rome) و الذي انتهى بسبب "غزو" العرب للمنطقة. نظرة محمود إسماعيل لا تختلف كثيراً عن تفسير مؤرخ مصرى آخر و هو حسن إبراهيم حسن في كتابه "تاريخ الدولة الفاطمية في المغرب و مصر و سوريا و بلاد العرب" عندما حمل ثورة أبي يزيد الختسب مسؤولية تغريب عمران بلاد المغرب وإلى عرب بين هلال عملية القضاء على الحضارة القبروانية المزدهرة².

مع نهاية السبعينيات و بداية الثمانينيات ظهرت مجموعة من الدراسات تختص بالخلافة الحمادية على أساس أنها معاصرة للهجرة الهلالية. أولى هذه الدراسات عبارة عن رسالة ماجستير نوقشت بجامعة عين شمس عام 1975 و نشرت عام 1980 تحت عنوان "دولة بنى حماد صفحة مشرقة في تاريخ الجزائر" للمصري عبد الحليم عويس، و هي الدراسة التي ركزت على دراسة النتائج السياسية للهجرة الهلالية وأثرها على الحكم الحمادي. لقد نجح الحماديون من السقوط بعد أن توغلت القبائل الهلالية في بلاد المغرب حسب رأي هذا المؤلف³. في الحقيقة تعتبر دراسة عويس وصفية و تقليدية مدافعة عن العروبة المزروحة بالإسلام في قالب

¹ محمود إسماعيل، *الخوارج في المغرب الإسلامي*، بيروت، دار العودة، القاهرة، مكتبة مدبولي، 1976، ص 202-203.

² حسن إبراهيم حسن، *تاريخ الدولة الفاطمية في المغرب و مصر و سوريا و بلاد العرب*، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، 1964، ص 92، 254. يمدد الإشارة بأن هذه الدراسة تعتبر قديمة، فهي في الأصل رسالة دكتوراه باللغة الإنجليزية نوقشت بجامعة لندن عام 1928.

³ عبد الحليم عويس، *دولة بنى حماد صفحة مشرقة من تاريخ الجزائر*، بيروت، دار الشروق، 1980.

إيديولوجي بعيداً عن روح النقد العلمي للمصادر التاريخية. الدراسة الثانية جمعت بين التاريخ العام والأركيولوجيا و هي من إنجاز رشيد بورويبة تحت عنوان "الدولة الحمادية تاريخها و حضارتها" و هي الدراسة التي تناهيل فيها صاحبها النقاش الدائر حول أثر المجرة الهمالية و اكتفى بذلك أهم الأحداث التي واجهت دخول قبائل بني هلال إلى المغرب الأوسط¹. وأخيراً نجد كتاب "دولة بني حماد ملوك القلعة و بجاية" لاسعابيل العربي حيث حاول فيه الدفاع عن العرب من خلال التفريق بين كلمة عرب و كلمة أعراب ليصب غضبه على الأعراب بمعنى القبائل الهمالية وفق النظرة الاستعمارية، فقد نسب إليهم تحريب العمران و دخولهم في حروب ضد البربر المستقررين مثليين بصفتها ثم بزنانة².

مع بداية الثمانينيات ازداد الاهتمام العربي بالمسألة الهمالية من خلال صدور مجموعة من الدراسات. فقد خصص حسين مؤنس فصلاً كاملاً لل洄رة الهمالية في كتابه "عالم تاريخ المغرب و الأندلس" معتبراً بأن القبائل الهمالية خربت بلاد المغرب لكنها ساهمت بعد ذلك في بناء حضارتها و تعريب المنطقة و خلق توازن بين القبائل البربرية³. السيد عبد العزيز سالم ذهب أبعد من ذلك عندما ترجم حرفيماً ما أتى به مارسي حول نتائج المجرة الهمالية و المتمثلة أساساً في الخسار ملك

¹ رشيد بورويبة، الدولة الحمادية تاريخها و حضارتها، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، 1977، ص 54-55.

² اساعبيل العربي، دولة بني حماد ملوك القلعة و بجاية، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1980، ص 153-160.

³ حسين مؤنس، عالم تاريخ المغرب و الأندلس، الفجاجة، دار مطبع المستقبل، 1980، ص 155-156.

السلالات الصنهاجية، و تخريب عمران و حضارة بلاد المغرب، و تعريب البلاد و انقسام بلاد المغرب إلى دول و طوائف على نحو ما حدث في الأندلس عقب سقوط الخلافة الأموية¹. تأثر بعض الدراسات العربية إلى حد كبير بتيارات الاستشراق الفرنسي جعل بعض المؤرخين تحت لواء إيديولوجيات مختلفة يحاولون إعطاء تفسير جديد أو البحث عن أصوات جديدة حول المجراة الملالية كما فعل كل صباح ابراهيم الشيشلي في مقاله "الهلاليون في المغرب، ضوء جديد حول أثر هجرتهم" (1982)² و مدوح حسين في مقاله "العرب الملالية في إفريقيا و دورهم في الحروب الصليبية" (1981). هذا الأخير ركز على الدور العسكري لهذه القبائل و اعتبرها المنفذ الرئيسي لبلاد المغرب من الخطر الصليبي³. إعادة الاعتبار أو إعطاء دور أكثر أهمية للقبائل الملالية بدا بارزا في رسالة الدكتوراه التي ناقشها و نشرها مصطفى أبو ضيف أحمد عمر تحت عنوان "القبائل العربية في المغرب في عصر الموحدين و المرinيين" الذي أقر بالدور السياسي و الاقتصادي الهام الذي لعبته القبائل العربية في تاريخ المغرب⁴.

¹ المسيد، عبد العزيز سالم، المغرب الكبير، ج 3: العصر الإسلامي، دراسة تاريخية و عمرانية و أثرية، بيروت، ناز الهضة العربية، 1981، ص 671-673.

² صباح ابراهيم الشيشلي، "الهلاليون في المغرب، ضوء جديد حول أثر هجرتهم" المجلة التونسية للعلوم الاجتماعية، ع 70-71، (1982) ص 26-7.

³ مدوح حسين، "العرب الملالية في إفريقيا و دورهم في الحروب الصليبية" الكلrasات التونسية، XXIX ، (1981)، ص 90-73.

⁴ مصطفى أبو ضيف أحمد عمر، القبائل العربية في المغرب في عصر الموحدين و المرinيين، الجزائر، ديوان النطبوغات الجامعية، 1982، ص 332-338.

إسراز الدور الإيجابي وأحياناً تفجيمه وإهمال الجوانب السلبية للهجرة الملالية ارتبط ببروز التيارات القومية العربية وعلى الخصوص في زمن الرئيس المصري جمال عبد الناصر التي رأت في الدفاع عن العرق العربي هدفاً أساسياً للمؤرخ، وهذا يجد أن أغلب هذه الدراسات ينحصرها الجانب العلمي والمنهجي في الكتابة التاريخية الحديثة. كما أن بعض الدول العربية عينت مؤرخين رسميين لإعادة كتابة ماضيها كما فعل الملك الحسن الثاني عندما نصب عبد الوهاب بن منصور، صاحب قاموس القبائل المغربية، مؤرخاً رسمياً للبلاد الملكي.

بعد تراجع النقاش في الغرب حول أثر الهجرات في تحطيم الحضارات، قل الاهتمام كذلك بالمجراة الملالية ببلاد المغرب على أساس أن النقاش أصبح عقيماً لعدم توفر مصادر تاريخية جديدة تخدم الموضوع. فيما يخص الكتابات العربية، التاريخ السلاطاني قتل إلى حد كبير المقاريب الهامة التي تحدد الفترات الكبرى للتحولات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية طالما أن الباحث يحكم على موضوع دراسته بالازدهار أو الركود أو حتى الانقطاع إن تعاقب الأمر بالحركات الاحتجاجية المسلحة. ففي كتابه "دولة الأدارسة في المغرب — العصر الذهبي 172—835/223—788" حمل سعدون عباس نصر الله البربر المخوارج مسؤولية تغريب التسبيع العماني لبلاد المغرب، في حين نسب إلى الأدارسة عملية إحداث ازدهار ملموس بعد تأسيس دولتهم¹. هذه النظرة الجزرية والعاطفية مع التشيع الإدريسي يجد ما يماثلها و هو التحيز للمرابطين في كتاب "أضواء جديدة

¹ سعدون عباس نصر الله، دولة الأدارسة في المغرب — العصر الذهبي 172—835/223—788، بيروت، دار النهضة العربية، 1987، ص 137—138.

على المغاربيين "لعصم عبد النطيف دندش، فهو يعطي الشرعية لأمراء الحركة المغاربية على حساب الحماديين والهلاليين متهمًا إياهم بإلحاق أضرار جسيمة ببلاد المغرب¹. في كتابه الموسوم "الموحدون في الغرب الإسلامي تنظيماتهم ونظمهم" يصور لـناعز الدين عمر موسى نموذج آخر من السقوط في تلك الكتابة التاريخية المصنوعة في البلاط الموحدي، و هذا عندما يعتمد على نص ابن صاحب الصلاة، أحد الموظفين المتعصبين لحركة ابن تومرت، و الذي يزيد أن يقنعنا بأن العرب الهلاليين عاثوا فسادا في إفريقيا إلى غاية توجيه طاقتهم لخدمة الأمة من طرف عبد المؤمن بن علي وأحفاده².

بقاء التردد حول دور المиграة الهلالية في تخريب حضارة المغرب الوسيط يدا حليا في بعض الدراسات العربية التي انحرفت خلال السنوات العشر الأولى، و خير مثال على ذلك ما كتبه الباحث التونسي صالح بعيز في رسالة دكتوراه قدمها أمام جامعة تونس الأولى عام 1995 تحت عنوان " بحيات في العهد الحفصي دراسة اقتصادية و اجتماعية" و التي غيرت من خلاطها عن موقفه من بنيء الهلاليين إلى بلاد المغرب، موقف غير بعيد عن النظرة الاستعمارية السالفة الذكر، فهو يعتبر هزيمة الحماديين في معركة سبيبة انتصار للبداوة على حياة الاستقرار و هو ما أدى إلى تغيير البنية الاجتماعية لبلاد المغرب، كما أدى هذا المجيء إلى فرار السكان من

¹ لعصم عبد الجيد دندش، أضواء جديدة على المغاربيين، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1991، ص 73-74.

² عز الدين عمر موسى، الموحدون في الغرب الإسلامي تنظيماتهم و نظمهم، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1991، ص 51-52.

المناطق الداخلية و استقرارهم بالمناطق الساحلية، بمعنى آخر طرد هؤلاء البدو للسكان البربر الأصليين من ممتلكاتهم، و هذا لا يختلف كثيراً عن أفكار مارسي. بعيرزق يرى بأن تحول الاقتصاد المغربي من زراعي إلى رعوي هو ناتج عن ازدياد طلب التجار الأوروبيين لتلبية حاجيات الصناعة الغربية من الجلود و الصوف، فهو يتقاسم نفس النظرة المغيرة عنها من طرف المؤرخين الاستعماريين حول تغلب الرعي على الزراعة في بلاد المغرب الوسيط لكن مختلف معهم حول السبب في ذلك¹.

الطرح الاستعماري الفرنسي حول مسألة انحطاط حضارة المغرب الوسيط وإلقاء مسؤولية ذلك على العرب الهماليين أثار إذن عدة ردود فعل من طرف النخبة المغاربية و العربية المفرنسة منها و المغربية، لكن السؤال المطروح هو ما مدى تقبل المدارس الاستشرافية الأخرى للنظرة الفرنسية الاستعمارية؟ مايكيل برات رائد الإنصاف الاستشرافي اتجاه العرب الهمالية تقليدياً تاريخ بلاد المغرب الوسيط كان حكراً على المدرسة الفرنسية وهذا لارتباط قسم كبير من الاستشراق الفرنسي بالاستعمار في الفترات السابقة. لكن بعد استقلال بلدان المغرب اهتم بعض المستشرقين الألمان والإيطاليين والأسبان والإنجليز بتاريخ المغرب الوسيط. سأشير فقط إلى دراستين الأولى بالإيطالية والثانية بالألمانية و في الأخير أركز على الاستشراق الإنجليزي الذي كان له دور أساسي في تحديد الدراسات الغربية الخاصة بالمغرب الوسيط.

¹ صالح بعيرزق، نهاية في العهد الخصفي دراسة اقتصادية و اجتماعية، رسالة دكتوراه، جامعة تونس الأولى، 1995، ج 1، ص 53، ج 2، ص 363.

في سنة 1973 أصدر دافيد أبو لافيا (David Abulafia) مقال بعنوان "النشاط التجاري الجنوبي في إفريقيا النورمانية: مدينة طرابلس" حيث بين فيه نشاط الحركة التجارية بالمنطقة، و أقسم فيه القبائل الهمالية بـ تحرير إفريقيا و انحصار بذلك إلى أصحاب الأطروحة الكارثية¹. بعده بقليل أصدر المؤرخ الألماني مارتن فورستنر (Martin Forstner) دراسة هامة حول المغرب الأوسط حيث تعرض فيها إلى أسباب و نتائج الهجرة الهمالية و اتجاه في الأخير موقفاً معايراً للنظرة الكارثية². المساهمات الإيطالية و الألمانية حول الموضوع لم تعرف التجاج الذي أثخره الاستشراق الإنجليزي مثلاً في المؤرخ المعروف مايكل برات (Michael Brett) الاختصاصي في تاريخ إفريقيا في العهدين الفاطمي و الصنهاجي و صاحب العديد من المؤلفات الهامة كان آخرها *The Rise of the Fatimids, The World of the Mediterranean and the Middle East in the Fourth Century of the Hijra, Tenth Century CE* (2001)³

مايكل برات أثخر رسالة دكتوراه حول العرب الهمالية بالقبرون ثم و سع دائرة أبحاثه لتشمل ليبيا و بلاد الراب، و قام بنشر مقالاته ابتداء من سنة 1979 بصدور مقال له تحت عنوان " ابن خلدون و تحرير إفريقيا الشمالية"⁴ لتليه أربع

¹ David Abulafia, « L'Attività commerciale genovese nell'Africa normanna : la città di Tripoli » dans *Atti del Congresso Internazionale di Studi sulla Sicilia Normanna*, Palerme, 1973, p. 1-8, rééd. dans *Commerce and Conquest in the Mediterranean, 1100-1500*, Londres, Variorum Reprints, 1993, n° IX.

² Martin Forstner, *Das wegenetz des Zentralen Maghreb in islamischer*, Wiesbaden, Otto Harrassowitz, 1979, p. 81-83.

³ Leyde-Boston-Köln, Brill, 2001, 497 p.

⁴ Michael Brett, « Ibn Khaldun and the Arabisation of North Africa » dans *The Maghreb Review*, IV-1, (1979) p. 9-16.

مقالات مهمة حول المиграة الهمالية منها¹ "الكتابة التاريخية الفاطمية: دراسة حالة الجدال مع البربرين" (1982) و "هجرة البدو" (1995). مايكيل برات أوضح بأن المиграة الهمالية لم تكن السبب الوحيد في تقهقر حضارة بلاد المغرب و اعتبر ما قيل بشأنها ما هو إلا أسطورة صنعتها الكتابات الأوروبية لخدمة الإدارة الاستعمارية الفرنسية، لسبب بسيط حسب رأيه و هي أن بلاد المغرب ظهرت بها علامات الوهن و السقوط مع بداية العهد الصتهاجي نتيجة الحروب المدمرة و التي أدت إلى إحداث أزمة ديمografique و اقتصادية و سياسية. كما انتقد بالخصوص غوتبيه و مارسي حول حتمية الصدام بين البربري المستقر و العربي الراحل. و هذا فان مايكيل برات أصبح رائد التيار الاستشرافي المناهض لفكرة تحويل القبائل الهمالية مسؤولية القضاء على جميع جوانب الحياة في بلاد المغرب.

كتابات مايكيل برات دعمت الترعة المناهضة للطرح الاستعماري، فقد ظهرت مجموعة من الدراسات في عدد من البلدان الغربية. ففي بداية الثمانينيات كلفت المنظمة العالمية للتربية و العلوم (Unesco) المؤرخ المغربي محمد الفاسي بالإشراف على كتابة الجزء الخاص بالحقبة الوسيطة من مشروع "التاريخ العام

¹ Cf. Michael Brett, « Arabs, Berbers and Holy Men in Southern Ifriqiya 650-750h/1250-1350 Ad » dans *Cahiers de Tunisie*, 29, (1981) p. 533-559 ; id, « The Flood of the Dam and the Sons of the New Moon » dans *Mélanges offerts à Mohamed Talbi à l'occasion de son 70^e anniversaire*, Manouba, 1993, p. 55-67, rééd. dans *Ibn Khaldoun and the Medieval Maghreb*, Sydney-Ashgate, Variorum Reprints, 1999; id, « The Way of the Nomad » dans *Bulletin of the School of The Oriental and African Studies*, 58, (1995) p. 251-269, rééd. dans *Ibn Khaldoun. Le cas ifriqien et tripolitan étudié par M. Breit* dans « Ifriqiya as Market for Saharan Trade from the Tenth to the Twelfth Century A. D » dans *Journal of African History*, X, 3 (1969), p. 347-364 a été revu par une étude de David Abulafia, *op. cit.*

لإفريقيا" و تولى المؤرخ التشيكى ايفان هربك (Ivan Hrbek) بإعداد مقال مطول حول الفاطميين أين تطرق إلى الهجرة الهمالية و أيدى رأيه في القضية على ضوء آخر الدراسات في هذا الموضوع. المقال صدر سنة 1990 و فيه يجد أن النظرة "الكارثية" قد دفعت على مستوى المنظمة العالمية، اليونيسكو تبني إذن أفكار التيار "المنصف" للدور التاريخي للقبائل الهمالية، بل إن المؤرخ التشيكى يفضل الحديث عن "تغفل" بدل "غزو" القبائل الهمالية لبلاد المغرب. الشيء الوحيد الذي أيد فيه المؤرخين الاستعماريين هو قضية الإقرار بدور العرب الهمالية في تحويل النشاط الفلاحي لبلاد المغرب من زراعي إلى رعوي¹. النظرة المعبر عنها في "التاريخ العام لإفريقيا" لا تختلف كثيراً عن ما توصل إليه المؤلف الإيطالي ميشال بروندينو (Michele Brondino) في كتابه "المغرب الكبير: الأسطورة و الواقع" حيث هاجم فيه بشدة الكتابات التاريخية الاستعمارية و أشاد بالجيل الشاب من المؤرخين المغاربة الذين عملوا على تحرير تاريخ بلادهم من شوائب الاستعمار، ليعطي نظرته في الموضوع و هو أن أزمة المغرب لم تبدأ مع وصول الهماليين في منتصف القرن الحادى عشر و إنما الأزمة حدثت في القرن الرابع عشر الميلادي نتيجة الصراع بين الأسر الحاكمة لهذه المنطقة من جهة و المجموعات النصرانية من جهة أخرى².

¹ Ivan Hrbek, « L'avènement des Fatimides » dans *Histoire générale de l'Afrique*, Paris, Unesco/Nea, 1990, vol. III, p. 342-363.

² Michele Brondino, *Il Grande Maghreb : Mito e Realtà*, traduit en français par Yvonne Fracassetti Brondino, *Le Grand Maghreb : mythe et réalités*, Tunis, Alif, 1990, p. 28-34.

في مقال لها صدر سنة 1992 بـ "حاوية الدراسات العربية" حول النشاط الاقتصادي في بلاد المغرب الوسيط، تطرقـت ماريا فيديازوف (Maria F. Vidiasov) إلى قضية الانحطاط الاقتصادي لبلاد المغرب في نهاية العصر الوسيط من خلال تعريضها بالقدر بعض الدراسات التي صنعت نظرة سكونية للمجتمع المغربي مبنية على علاقات بين بعض المدن و على أرياف متغلقة على نفسها. فيديازوف ألمـت الحكمـان المسلمين بسوء التسيير و إهمالـم دورـهم اتجاه الرعـية، و كذلك احتـكارـهم للتجـارة الـراـبـحة الـبـحـرـية منها و الصـحرـاوية. باعتمـادـها على عدد من كـتبـ الجـغرـافـيـة، تـطرقـت هذه المؤـلـفة إلى تنـوعـ الإـنـتـاجـ الفـلاـحيـ في بلـادـ المـغـربـ الوـسـيـطـ و الـذـي لا يـخـلـفـ كـثـيرـاـ عنـ الفـتـرةـ الـقـدـيـمةـ بالـرـغمـ منـ الـأـزـمـاتـ الـتـيـ واـكـبتـ اـنـتـقـالـ الـبـنـيـةـ الـاـقـصـادـيـةـ منـ الـمـرـحـلةـ الـبـيـزـنـطـيـةـ إـلـىـ الـفـتـرةـ الـإـسـلـامـيـةـ. فيـ الـأـخـيـرـ رـأـتـ الـبـاحـثـةـ بـأنـ الـقـبـائـلـ الـهـلـالـيـةـ لمـ تـكـنـ مـسـؤـولـةـ عنـ تـخـرـيبـ اـقـصـادـ المـغـربـ، وـ إـنـماـ تـرـاكـمتـ عـدـدـ عـوـاـمـ أـدـتـ فـيـ النـهـاـيـةـ إـلـىـ انـهـاطـ عـامـ لـبـلـادـ المـغـربـ اـبـتـداءـ مـنـ الـقـرنـ الثـانـيـ عـشـرـ المـيـلـادـيـ¹.

من جـهـتهـ عـادـ المـؤـرـخـ الـمـلـحـيـكـيـ جـاكـ تـيرـيـ (Jacques Thiry) إـلـىـ إـثـارـةـ النقـاشـ حولـ دـورـ العـرـبـ الـهـلـالـيـةـ فـيـ انـهـاطـ حـضـارـةـ بـلـادـ المـغـربـ وـ هـذـاـ مـنـ خـلالـ مـقـالـ صـادـرـ عـامـ 1998ـ تحتـ عنـوانـ "مـصـرـ وـ انـهـاطـ إـفـرـيقـيـاـ الشـمـالـيـةـ"ـ، حيثـ اـنـقـدـ فـيـ الـكـاتـبـةـ الـتـارـيـخـيـةـ الـأـوـرـوـيـةـ وـ الـفـرـنـسـيـةـ مـنـهـاـ عـلـىـ الـخـصـوصـ لـتـحـسـيلـهاـ الـقـبـائـلـ الـعـرـرـيـةـ مـسـؤـولـةـ تـخـرـيبـ بـلـادـ المـغـربـ. تـيرـيـ رـفـضـ فـكـرـةـ الـكـارـثـةـ الـهـلـالـيـةـ وـ نـصـبـ

¹ Maria F. Vidiasov, « Le Maghreb médiéval : mercantilisme parasitaire ou société productrice » dans *Anaquel de Estudios Arabes*, 3, (1992) p. 241-246.

نفسه في حالة المتصفين بقيادة بونسي و برات. و لتحليل نظرته، اقترح هذا المؤرخ البنجيكى عوامل أخرى لتفسير ظاهرة الانحطاط أولاًها العمليات البحرية البيزنطية أبتداءً من منتصف القرن العاشر الميلادي و التي أدت إلى توقيف "القرصنة" الإسلامية و هذا ما أدى إلى النقص في عدد الرقيق البيض و بالتالي الأيدي العاملة في السيدان الزراعي و الحرفي. العامل الثاني هو نقل الضرائب الملقاة على عائق السكان من طرف الفاطميين و من بعدهم البادسيين و هذا ما أدى بالفعنة النشطة وخصوصا التجار بالحجرة إلى المشرق، و أخيرا دور مصر من خلال محاولة التوسيع في بلاد المغرب و ما نتج عنها من تحالف قرافقش الغزي مع المورقين و بعض القبائل الهاشمية ضد النظام الموحدى في المغرب الأوسط و إفريقية و الذي أدى في الأخير إلى تخريب العمران. من خلال دراسة أوضاع منطقة طرابلس في نهاية القرن الثاني عشر خرج جاك ثيري بنتيجـة و هي أن انحطاط بلاد المغرب لا يمكن ربطـه بأى نظام حـياة أو أى عـرق أو جـمـوعـة اجتماعية و إنما الإنسـان عبر عـدة مراحل¹. كما رأينا فـإنـ أغلـبـ الـدـرـاسـاتـ الـاستـشـارـاقـيةـ خـصـوصـاـ الإـنـجـلـوـسـكـسـونـيـةـ مـنـهاـ تـحرـرتـ مـنـ النـظـرةـ الـاسـتـعـمـارـيـةـ، فـهـلـ الـكـتـابـاتـ الـفـرـنـسـيـةـ الـمـعاـصـرـةـ تـبعـتهاـ فيـ ذـلـكـ؟ـ

¹ Jacques Thiry, « L'Egypte et le déclin de l'Afrique du Nord XI-XII^e siècle » dans *Egypt and Syria in the Fatimid, Ayyubid and Mamluk Eras*, Leuven, Vitgeverij Peetens, 1998, p. 237-248.

تعددات الكتابات الفرنسية المعاصرة

باستثناء المحادي روجي ادريس المتوفى سنة 1978 لم تعرف المدرسة التاريخية الفرنسية المعاصرة متخصصين كبار في تاريخ المغرب الوسيط. الاستشراق تراجع باستقلال الدول المستعمرة من جهة و من جهة أخرى نتيجة الدور الذي لعبه كلود كهان (Claude Cahen) في توجيهه أغلب الدراسات إلى الاعتناء بالشرق الإسلامي. جمهور الاستشراق الفرنسي المعاصر غير هو الآخر عن رأيه حول ما كتب بشأن تحويل القبائل الحلالية عملية تخريب بلاد المغرب، لكن في الغالب حل ما كتب لم يكن إلا ردود فعل أو مواقف معبر عنها اعتمادا على دراسات سابقة.

ففي سنة 1968 أصدر الجغرافي كرافبي دو بلانول (Xavier de Planhol) كتابا بعنوان "الأسس الجغرافية لتاريخ الإسلام" حيث تطرق فيه إلى أسباب تخريب المغرب و أرجعها إلى التغيرات المناحية و إلى القبائل الحلالية¹. في نفس السنة أصدر أندرى ميكال (André Miquel) كتابه الموسوم "الإسلام و حضارته" و عبر فيه عن موقفه بشأن المحرجة الحلالية و التي حلتها مسؤولية تراجع نظام الدولة و سيادة حكم القبائل و كذلك الأهياب الاقتصادي لبلاد المغرب². بروية أوسع و صل أشهر المستشرقين المنصوصين تحت لواء مدرسة الموليات (Ecole des annales) و هو موريس لومبار (Maurice Lombard) إلى نتيجة مفادها بأن

¹ Xavier de Planhol. *Les fondements géographiques de l'histoire de l'islam*, Paris, Flammarion, 1968, p. 140-143.

² André Miquel. *L'Islam et sa civilisation VII-XX^e siècle*, Paris, Armand Colin, 1968, p. 197-198.

الغزوة النورمانية و الهجرة الهمالية قامتا بفصل الغرب الإسلامي عن بلاد المشرق، وهذا في كتابه "النسووجات في العالم الإسلامي من القرن السابع إلى القرن الثاني عشر"¹. بعده بقليل و منهج معاير تناول جاك بارك (Jacques Berque) إشكالية الهجرة الهمالية في مقال له تحت عنوان "من جديد حول بنى هلال" و فيه اتفقد الكتبات الاستعمارية التي اعتمدت على ابن خلدون في توجيهه أصوات الاتهام للهلاسين بحكم أن هذا الأخير كتب بمدة طويلة بعد الحادثة من جهة و تسطيره بعيد عن الواقع التاريخي من جهة أخرى. جاك بارك اقترح دراسة نتائج الهجرة الهمالية حسب حالة كل منطقة مع تحليل دقيق للتحولات السياسية و الاجتماعية وهذا للخروج بنتيجة شاملة و علمية².

بعد غياب دام عدة سنوات خرج الهادي روجي ادريس عن صمته و كتب مقالا مطولا لم يكتب له القدر أن يراه مطبوعا كونه نشر بعد فترة قصيرة من وفاته. الدراسة نشرت بعنوان "المغرب من المرابطين إلى السيطرة التركية" (1979) و فيها دافع المؤلف عن نظرته السابقة من خلال تأكيده بأن الهجرة الهمالية زرعت الخراب و الفوضى في بلاد المغرب³. و تعتبر ما نشره غريمال كمبس (Gabriel Camps) من آخر ما كتب من طرف الجيل القديم من

¹ Maurice Lombard, *Les textiles dans le monde musulman du VII^e au XII^e siècle*. Paris-La Haye-New York, Mouton et EHESS, 1978, p. 77.

² Jacques Berque, « De nouveau sur les Banî Hilâl » dans *Studio Islamica*, XXXVI, (1972) p. 99-111.

³ Hady Roger Idris, « Le Maghreb des Almoravides à la domination turque » dans *Regierung und Verwaltung des vorderen Orients in Islamischer Zeit*, teil 1, Leyde, E. J. Brill, 1979, p. 1-16.

المستشرقين الفرنسيين، و هذا في مقال له نشر سنة 1983 تحت عنوان "كيف تحولت بلاد البربر إلى المغرب العربي" و الذي ذكرنا فيه بالطرح الاستعماري عندما أقسم القبائل الهمالية بتخريب الأرياف و تدمير السياج الاجتماعي والاقتصادي لبلاد المغرب¹. نجد تقريبا نفس الرؤية عند مؤلف فرنسي آخر و هو بول لويس كمبيزا (Paul-Louis Cambuzat) في كتابه الذي نشر في الجزائر تحت عنوان "تطور مدن التل في إفريقيا من القرن السابع إلى القرن الحادى عشر" والذي اعتبر فيه "الغروة" الهمالية بأنها شكلت قطبيعة في تاريخ مدن التل الإفريقي أكثر مما فعله الفتح الإسلامي. نفس المؤلف أضاف بأن "الغروة" الهمالية أوقفت بشكل عنيف حضارة مدن المغرب إلى غاية العهد الخصي أين تشكلت من جديد².

بعد وفاة الكثير من رموز الجيل القديم في الاستشراق الفرنسي و تحول اهتمام الجيل الجديد إلى البحث عن ماضي بلاد المشرق باعتبارها مهد الدين الإسلامي تراجع الاهتمام الفرنسي بظاهرة الهجرة الهمالية اللهم إلا تلك الإشارات التي قام بها بعض الباحثين ضمن تعرضهم للعلاقات الاقتصادية بين المدن البحرية الغربية و موانئ المغرب. ففي مقاله "أمالفي و تونس في العصر الوسيط" الصادر سنة 1999 تطرق إيمانويلي ريفيرسو (Emanuele Riverso) إلى الهجرة الهمالية و حملها مسؤولية امتحاط التجارة مع مدينة أمالفي (Amalfi) الإيطالية بعد أن

¹ Gabriel Camps, « Comment la Berbérie est devenue le Maghreb arabe » dans *Revue du Monde Musulman et de la Méditerranée*, 35 (1983-1), p. 7-24.

² Paul-Louis Cambuzat, *L'évolution des cités du Tell en Ifriqiya du VII^e au XI^e siècle*, Alger, Offices des publications universitaires, 1986, vol. I, p. 152-153.

أقدمت تلك القبائل على تخريب المزارع والأرياف¹. من جهته تطرق برنار بومار (Bernard Boumér) إلى إشكالية الخطاط المغرب وهذا في كتابه "البندقية والإمارة الحفصية (1231-1553)" حيث اعتبر القرن الخامس عشر بمثابة فترة ازدهار السلطنة الحفصية في حين مثل القرن السادس عشر مرحلة الانحطاط، وهي نظرة تقارب ما توصلت إليه بعض الدراسات من أن الانحطاط كان في السنوات الأخيرة للحفصيين².

هنري برسك (Henri Bresc)، المؤرخ الفرنسي المتخصص في تاريخ صقلية في العهد النورماني، نشر مقالاً عن "ملكة النورمان بإفريقية وأسقفية المهدية" (1998) حيث توصل فيه إلى عدة نتائج من بينها أن الحجرة الهمالية قضت على أنشطة الأرياف وعزلت المدن الساحلية وأحيت التنظيمات القبلية وهذا ما أدى إلى انتشار الفوضى بالمنطقة³. دائمًا في إطار الدراسات حول العلاقات بين بلاد المغرب والموانئ الغربية، أشفر إلى رسالة دكتوراه لدمينيك فاليريون (Dominique Valérian) حول علاقة ميناء بجاية بموانئ البحر المتوسط والتي بين فيها بطلان النظرية الاستعمارية لتفسير الانحطاط حضارة المغرب الوسيط حيث أكد أنه لم تحدث قطيعة في تاريخ المغرب بسبب الحجرة الهمالية ولا الانحطاط

¹ Emanuele Riverso, « Amalfi et la Tunisie médiévale » dans *Cahiers de Tunisie*, 178, (1997) p. 11-28.

² Bernard Boumér, *Venise et l'émirat hafside de Tunis (1231-1535)*, Paris, L'Harmattan, 1999, p. 45.

³ Henri Bresc, « Le royaume normand d'Afrique et l'archevêché de Mahdiyya » dans *Le partage du monde : échange et colonisation dans la Méditerranée médiévale*, (s/d M. Balard et A. Ducellier, Paris, Publication de la Sorbonne, 1998, p. 347).

في القرن الحادى عشر و إنما أزمة في القرن الرابع عشر و التي انتهت في القرن الخامس عشر^١.

بالرغم من نشر الكثير من الدراسات التي راجعت النظرة الاستعمارية حول دور العرب الهمالية في الخطاط حضارة المغرب الوسيط فان أغلب جمهور الاستشراق الفرنسي من غير المتخصصين يعتمد أساسا على الهمادي روجي ادريس و بالتالي النظرية الكارثية في التعريف بتاريخ المغرب سواء للقراء من عامة الناس أو لطلبة ما قبل التدرج. فمن النوع الأول أشير إلى كتاب "الإسلام و الحضارة الإسلامية" لجورج بيروني (Georges Peyronnet) الصادر سنة 1992، و الذي نسب للعرب الهمالية تدمير الاقتصاد المغربي و تعطيل الطرق و القضاة على الدول القائمة و إحداث عدم توازن اجتماعي^٢، و كتاب "الإسلام و البحر" الذي صدر سنة 2000 ملوله كساڤي دو بلانول (Xavier de Planhol) و الذي لم يغير مسوافقه التي عبر عنها في كتابه الذي سبق الإشارة إليه عندما اتهم العرب الهمالية بتخريب المدن الداخلية و طرد البربر نحو الساحل^٣.

^١ Dominique Valérian, *Bougie, port maghrébin à la fin du Moyen Age (1067-1510)*, Thèse de doctorat nouveau régime, Université de Paris I, 2000, p. 209, 230, 375, 633.

^٢ Georges Peyronnet, *L'Islam et la civilisation islamique VII-XIII^e siècle*, Paris, Armond Colin, 1992.

^٣ Xavier de Planhol, *L'Islam et la mer, la mosquée et le matelot VII^e – XX^e siècle*, Paris, Perrin, 2000, p. 158-160.

الكتابات من النوع الثاني تجدها متعددة من بينها كتاب "العالم المتوسطي من القرن السابع إلى القرن الثالث عشر" لبياتريس لوروا¹ (Béatrice Leroy) وخصوصاً كتاب "دول الإسلام من القرن السابع إلى القرن الخامس عشر" لآلان ديسوللي (Alain Ducellier) و فرانسواز ميشو (Françoise Micheau)²، وهذه الكتب ليست بآبحاث وإنما مطبوعات موجهة للطلبة لتحضير مسابقات الكفاءة، لكن ما نلاحظه هو تبنيها للطرح الاستعماري كما نلاحظه في هذه الجملة المقاطفة من الكتاب الأخير:

"الغزوة المعروفة بالهلالية ظهرت بأنها كارثية مع التخريب الكامل للقرون و أغلب المدن الأخرى و على الحصوص تدمير الأرياف بالكامل".³

الكتابات الاستعمارية حول تاريخ المغرب الوسيط ما زالت إذن تشكل مرجعية مهمة للفرنسيين المعاصرین، و لا نكاد نجد أثر ملموس لتيار الاستشراق النصف اتجاه المجرة الهلالية اللهم إلا تلك الكتابات المحدودة للمؤلفين المحسوبين على تيار اليسار مثل يف لا كوست (Yves Lacoste) في مقاله "من التاريخ القديم إلى الاستعمار: تاريخ مضطرب" الصادر سنة 1991 حيث كتب قائلاً حول أسطورة الغزوة الهلالية:

¹ Béatrice Leroy, *Le monde musulman du VII^e au XIII^e siècle*, Paris, Oprhys, 2000, p. 87.

² Alain Ducellier et Françoise Micheau, *Les pays d'Islam, VII^e – XV^e siècle*, Paris, Hachette, 2000, p. 95.

³ *Ibid*, p. 95.

"يرى عدد من المؤرخين الأوروبيين الذين عاشوا في الفترة الاستعمارية بأن القرن الحادي عشر شكل في تاريخ المغرب مرحلة حاسمة، وهي مرحلة احتياج الرحيل العربي، ظاهرة تقارن بغزو جنكيز خان أو تيمورلنك لآسيا... هذه الأطروحة ليس لها أساس تاريخية صلبة، لكنها مكنت من القول بأن الاستعمار الفرنسي كان بالنسبة للبربر المستقرين وسيلة لاستعادة السهول و معارضة العرب و الرحيل المغاربة".¹

الخاتمة: نحو رؤية شاملة لقضية الانحطاط

منذ أزيد من قرن و نصف ظهرت إذن مجموعة من الدراسات لدراسة ظاهرة انحطاط حضارة بلاد المغرب والتي نسبت في أغلب الأحيان إلى القبائل الهماللية. الاختلاف في وجهات النظر راجع من دون شك إلى عدة عوامل و هي الغاية من كتابة التاريخ و الخلفية الفكرية للمؤلف، و تطور مفهوم التاريخ ومناهجه و تعدد تiarاته، و تنوع المصادر التاريخية و طريقة استعمالها و أخيرا نظرة المؤلف إلى موضوعية المصادر التاريخية.

فيما يخص الخلفية، لم يعد يخف على أحد بأن تاريخ العالم نظر إليه من زاوية أوروبية، و هي النظرة المتميزة بالمركزية و المستعلية على الثقافات المعاصرة لها. و ما العصور الوسطى إلا وعكة صحية لحضارة إنسانية واحدة غربية بطبيعة

¹ Yves Lacoste, « De l'Antiquité à la colonisation, une histoire mouvementée » dans *L'Etat du Maghreb*, Paris, La Découverte, 1991, p. 42.

الحال نشأت مع السلت و استمرت مع اليونان و الرومان و عادت من جديد في ثوب النهضة ثم التنوير ثم الثورة الصناعية. النظرة الاستعمارية الفرنسية حاولت جر البربر إلى فلك هذه الحضارة من خلال اهام العرب بفصلهم عن الحضارة و جرهم إلى ظلام و بذلة الجزيرة العربية. و جاءت أولى الكتابات حول تاريخ المغرب في هذا الاتجاه، يعني كتابة التاريخ خدمة المشروع الثقافي الاستعماري الذي أراد صناعة تاريخ وفق منظوره. في مقابل هذا كان رد فعل القومية العربية عشوائياً من خلال الدفاع الأعمى عن منجزات العرق العربي بمحاسنه و مساوئه و بالتالي مناقضة الأطروحة الاستعمارية من أساسها. و الآن جاء دور أجهزة الإعلام أين الكثير من الباحثين لا يواليون اهتمام لنتائجهم العلمية بقدر إرضاء الجمهور لكتسب مكانة عالية لديهم على حد تعبير الكاتب الفرنسي فرنسيس بال (Francis Balle). و من هنا نفهم إصرار كاتب مثل كزافيهي دو بلانول على إرضاء القارئ و المستمع الفرنسي بحكاياته عن الملاليين و دورهم في إحداث قطيعة في تاريخ المغرب.

منذ الكتابات الأولى حول الحجرة الملالية مر علم التاريخ بعدة مراحل، كل مختلفة عن سبقتها في المقاربة و المصادر. فالكتابات الفرنسية الأولى حول تاريخ المغرب تأثرت إلى حد كبير بأقطاب التيار الوضعي من أمثال ميشيل ميشيل (Michelet) في كتابه "تاريخ فرنسا" و كذلك حل الباحثين المتضوين تحت لواء "المجلة التاريخية" (La Revue historique)، هنا التيار قدم نظرة "حدثية" للتاريخ بالإعتماد على المصادر التقليدية خصوصاً معنى كتب التاريخ الحولي (annales et chroniques)، و هذا ما أدى بأوائل المؤرخين الفرنسيين إلى الاعتماد على كتب ابن الأثير و ابن خلدون و نقل ما فيهم لصنع في الأخير أسطورة بعيداً

عن حقيقة ما جرى في بلاد المغرب. مع سيطرة مدرسة الحوليات و بروز الماركسية المهيمنة و المدافعة في نفس الوقت عن "عامة" المجتمعات ظهرت إلى الوجود مجموعة من الدراسات تطعن في مصداقية ما تحمله المصادر الأدبية من معلومات، و من هنا أثيرت التساؤل حول من و لمن كتب التاريخ، معنى آخر هل يمكن الاعتماد على كتابة تاريخية من صنع "البرجوازية" و المحاشية الحاكمة في كتابة تاريخ "الضعفاء"؟ بطبيعة الحال جملة من التساؤلات أدت إلى الواقع في جدل بين أصحاب النظرية التقليدية للتاريخ و أصحاب المفهوم الجديد في الدراسات التاريخية.

بعد التأثير الكبير الذي لعبته البنوية (Le structuralisme) و أخيراً العلوم الاجتماعية كالأنثروبولوجيا (Anthropologie) هناك إمكانية الدراسة الشاملة لإشكالية إحداث المجراة أهلية لأزمة أو انقطاع عام لحضارة المغرب الوسيط وفق نظرة شاملة و مفتوحة بعيداً عن الخلفيات و الأحكام المسبقة¹.

¹ انظر مساهمتنا حول دور المجراة أهلية من خلال دراسة العهد الحمادي:

Ailaoua Amara, « Retour à la problématique du déclin économique du monde musulman médiéval : le cas du Maghreb hammadide (XI-XII^e siècles) » dans *The Maghreb Review*, 28-1, (2003), p. 2-26.

